رسالة :

الصّاهِلُ وَالشاحِج

لأبي العلاء المعرّي

الدكتور أمجد الطرابلسي

رغب إلي مجمع اللغة العربية في دمشق منذ مدة أن أقـــوم بتحقيق رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء ، وقدّم إليّ صوراً لمخطوطتين ثمينتـين من هـذا الكتـاب تضمهما الخزانـة الملكية العامرة في الرباط عاصمـة المملكة المغربية .

ومن نافلة القول أن أشير إلى ما لقيتـه هذه الرغبـة في نفسي من استجابة شديدة نظراً لما يشدّني إلى أبي العلاء من اهتمام ومحبة ، ولإقامتي حالياً في المغرب الشقيق غير بعيد من أصول الكتاب .

وما زلت منذ بُلّغتُ رغبة المجمع هذه وأنا عاكف على دراسة هذا الأثر الجليل وتحقيقه ، وقد أحببت وأنا على وشك الانتهاء من هذا العمل أن أقدم إلى محبي أبي العلاء حديثاً عن هذا الكتاب الشيّق أوضح فيـه أسباب تأليفه ، وأبيّن مضمونه في خطوطـه العريضة ، تاركاً الكلام على وصف المخطوطات المعتمدة وعلى بعض التفاصيل الفنيـة الأخرى المتصـلة بأسلوب التحقيق إلى المقدمة التي سأزوده بها لدى صدوره عما قريب إن شاء الله في سلسلة منشورات المجمع .

١ – كلام القدماء على الكتاب

ربما كان القفطي في (الإنبـاه) وياقوت في (الإرشـاد) أقدم من أشار من المؤرخين إلى رسالة الصاهل والشاحج فقد ذكرها الأول في فهرس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للتصانيف العلائية نقله عن أوراق أحضره إياها بعض البغداديين بالبلاد الشامية . وذكرها الثاني في ثبت آخر لهذه المؤلفات نقله من أحد مستملي أبي العلاء . ففي فهرس القفطي ذكر لكتاب « يُعرف برسالة الصاهل والشاحج ، يتكلم فيه على لسان فرس وبغل . مقداره أربعون كراسة . وكتاب لطيف في تفسير المقدم ذكره بالصاهل والشاحج ، يعرف : بلسان الصاهل والشاحج ، وكان الذي عُمِل له هـذا الكتاب يُدعى عزيز الدولة . »[١] . ثمّ يعود القفطي فيذكر هذين الكتابين بين التصانيف العلائية التي عاينها بنفسه[٢] . أما ياقوت فإنه يورد الوصف المقتضب نفسه للرسالة مع مزيد تعريف بالأمير الذي صنّف لأجـله وهو : « أبو شجـاع فاتك الملقّب بعزيز الدولة والي حلب من قِبَل المصريين . وكان روميّاً . »[٣] .

وكلّ المؤرخين الذين تعاقبوا من بعد على ترجمة أبي العلاء ، كالذهبي في (تاريخ الإسلام) والصفدي في (الوافي) لم يزيدوا على ما تقدّم شيئاً ، باستثناء ابن العديم الذي يقول متحدّثاً عن رسالة الصاهل والشاحج : « وهو كتاب حسن ، صنّفه للأمير عزيز الدولة أبي شجاع فاتك بن عبد الله الرومي . مولى منجوتكين[٤] العزيزي . وكان أبو شجاع هـذا والي حلب من قبل المصريين في أيام الحاكم وبعض أيام الظاهر . وكان سبب تصنيفه أنه رُفِع إلى فاتك أنّ حقّاً يجب له على بعض أقرباء أبي العلاء ، وجب على أبي العلاء سؤالُه فيه . مقداره أربعون كرّاسة ... وبعض الجهّال يقول إنّه عمله لأبي الدّوام ثابت بن ثُمال بن نصر بن صالح ، وكان يُلقّب بعزيز الدولة . وهو غير صحيح . بل الذي عمله لأبي الدوام اللامعُ العزيزي . »[٥]

ولا يفوتنا ونحن نعرض لكلام القدماء على الصاهل والشاحج أن نشير إلى ما ذكره أبو القاسم الكَلاعي ـ وهو من أدباء الأندلس في القرن السادس الهجري ـ في كتابه (إحكام صنعة الكلام) حول كتاب أبي العلاء . فقـد كان هـذا الأديب الأندلسيّ من الإعجاب بالمعرّي بحيث عارضه في كثير من كتاباته ، مثل (السجع السلطاني) ومقـدمة (سقط

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الزند) و (خطبة الفصيح) و (الصاهل والشاحج) . وإنما كان يعارضه محبّةً وإعجاباً لا تحدّياً . كيف لا وهو القائل : « وشأن أبي العلاء عظيم ، وحكم نَقدَة الكلام فيه أنّه لم يكن في صنعة النثر والنظم مثله لا قبله ولا بعده ، إلاّ ما كان من أبي الطيّب في الشعر وحده [٦] » . يقول الكلاعي في كتابه المشار إليه : وكأني بالناظر في هذه الرسالة يقول إذا قرأ هذه الفصول : أيّ فتىً لو ميّزَ حدّه ، فوقف عنده ، وعرف قدرَ نفسه ، فلم يزد على هَمْسِه ، ورأى بون ما بين الأرض والسّماء ، فلم يتطاول إلى مناهضة أبي العلاء ! وتالله ، إليّ لأعلم قدري ، ومساحة صدري ، ومثقال فهمي ، وغَلْوَةَ سهمي ، وقصوري عن أقصر إشاراته ، وعجزي عن أدنى عباراته . ولكنّي نُوزِعتُ الظلّ فأدعيت الجدار ، وأُبعِدتُ عن العُقر فاقتعدت الدار . وهيهات ! ما فاهضته في سقط الزند ، إلا بما لَفَفْتُ به رأسي حياءً من المجد . وما أنا في مضاهاته في رسالة الصاهل والشاحج ، إلا كَمَنْ ضاهى بالنّغبة عُبابَ البحر المائج . وما أنا في في معارضته في خطبة الفصيح ، إلا كمن عارض بالنَّفَس هبوبَ الريح . فَلْيَجِفَّ قلم المعترض ، ولْيَخِبْ سهم المتعصب المُمرِض إن شاء الله ! » [٧]

وقد أثبت الكلاعي في كتابه نماذج من رسالة الصاهل والشاحج ، ونماذج أخرى من معارضته إياها [٨] . وربما كانت هذه الاقتباسات القليلة التي أوردها من الصاهل والشاحج هي كلّ ما نعثر عليه في كتب القدماء من كلام أبي العلاء في هذه الرسالة . وقد نقلها الكلاعي نقلاً يدلّ على دقّةٍ وأمانة .

٣ ـ أسباب تأليف الكتاب

هناك ـ لاريب ـ سبب مباشر حدا أبا العلاء على تأليف الصاهل والشاحج ، وهو ما سبقت الإشارة إليه في كلام ابن العديم من أنه رُفع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى عزيز الدولة أن حقاً وجب له على أرض يملكها بعض أقرباء المعري فأملى أبو العلاء هذه الرسالة ليسأل والي حلب الصفح عن هذا الحق .

وهذا بعض ما يقوله أبو العلاء في صفحاتها الأولى مشيراً الى السبب الذي حمله على إملائها :

«لي - أطال الله بقاء السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء - أولاد أخ قد أوْذَموا (٩) على أنفسهم من خدمتي ما ليس بلازم ... ولهم أوالبُ (١٠) في مدينة حماة ، ولتلك الحَوْبات (١١) أشقاصُ (١٢) في أملاك يأمل هؤلاء الحِسْكلُ (١٣) - والأمل ساحر ساخر - ... أن يُصيبهم نفع من تلك الشُّهمة . ورفع رافع إلى الحضرة العالية أن حقاً يجب للخزانة المعمورة على أرض أولئك الدُّرْدِ النَّهابل (١٤) . وسألوني - والمسألة حُرْمة - أن أسأل السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء في ذلك . فأستحييْتُ أن أكلفهم في اليوم القصير عِدَّة لماسات ورُوَبٍ (١٥) ... وكان يجب علي من فرط الإجلال أن أقول لهم ما قاله زُرارةُ لِوَلَد سُوَيد بن ربيعة وقد تعلقوا به عند عمرو بن هند : يا بعضي دعْ بعضاً ! (١٦) ولكن حملني أطيط الحاسه (١٧) ، وعلمي بكرم الشيمة ، على النَّهضةِ بغير جَناح ... وقد أشرتُ عليهم بترك تَنَجُّزِهم الصفح عن ذلك وقلت : الصبرُ على القناعة أجمل من سوء الصناعة . والكريم يجب أن يُستحيا منه ... فأبوا إلا غير ذلك وقالوا : إنا لا نحمل أوقاً (١٨) كان موضوعاً فيما سَلَف ... فإذا عذلتهم في ذلك فلهم أن يقولوا : ألِأَ فقرَ منا يُهْدى غَمامُ أرضنا ؟ وسائمتنا أحق بما نبت في عِرْضِنا (١٩) . وقد وصلوا بهذه الرسالة رقعة يرجون بها من اليد العالية توقيعاً مؤبداً ، لا يكون بعده القول مردداً . بل يحسم بإيجاب ، طمع كل ناظر وجاب ... فإن جاءت بالنجح فلله الحمد ، ثم للسيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء ... وإن خابت فهي حقيقة بالخيبة . »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وواضح من هذا الكلام ، الذي فيه من رحمة الأقرباء مثل ما فيه من الأنفة والتأبي عن المسألة وحسن التصرف في مخاطبة أولي الأمر ، أن بعض اقرباء المعري المقيمين في حماة ، ممن تقدمت بهم السن ، لهم نصيب من الأرض التي يرجو أبو العلاء إعفاءَها من حق الخزانة المعمورة عليها ، وأن هذا النصيب سيؤول من بعدهم إلى أولاد أخٍ لأبي العلاء ، يتفانون في خدمته ، وبينهم أحداث قاصرون . وهم يُلحون على أبي العلاء أن يراسل عزيز الدولة ويرجو منه الصفح عن هذا الحق المستجد الذي كان موضوعاً فياسلف.

ولكن يحسن بنا ألا نغفل ، إلى جانب هذا السبب المباشر ، سبباً آخر غير مباشر ، وجد في مطلب أولاد الأخ فرصة تغتنم . وذلك أن أبا العلاء كان ما يزال يرغب في الاتصال بعزيز الدولة منذ أرسل هذا إليه يستقدمه إلى حلب وكلف كاتبه أبا نصر صدقة بن يوسف الفلاحي أن يبلغ المعري رغبته هذه . وكان لا بد للمعري ، وهو المصمم على لزوم محبسه في المعرّة ، من أن يلجأ إلى الاعتذار . ورسالته الجوابية إلى أبي نصر صدقة واضحة الدلالة على ذلك . وقد جاء فيها :

« ما حمامة ذات طوق ، يُضرب بها المثل في الشوق . . . بأشوق إلى المعيشة النضرة مني إلى تلك الحضرة . ولكن صنع الزمن ما هو صانع ، واعترض دون الخير مانع . حال الغَصَص دون القصص ، والجريضُ دون القَريض . . . وإن العامة عهدتني في صدر العمر أستصحب شيئاً من أساطير الأولين فقالت : عالم . والناطق بذلك هو الظالم . ورأتني مضطراً إلى القناعة فقالت : زاهد . وأنا في طلب الدنيا جاهد . وزاد تقوُّل العامة علي حتى خشيت أن أكون أحد الجهال الذين ورد فيهم الحديث المأثور : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس ، ولكن يقبض العلم بموت العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسُئلوا فأفتوا بغير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

علم فضلوا وأضلوا » . فغدوت حلس ربْع ، كالميت بعد ثلاث أو سبع . وحدثت عِلّةٌ كُنيَ عنها في المستمع ، وعاقت عن الحضور في الجمع ... وإنما ذكرتُ ذلك لينتهي إلى حضرة السيد عزيز الدولة ـ أعز الله نصره ـ أني تخلفت عن خدمته بمرضٍ ، منع من أداء المفترض . وإن الذكر ليطير للرجل وغيره الخطير ... وكيف يتأدّى العلم إلي وأنا رجل ضرير ؟ ونشأت في بلد لا عالم فيه ؟ ... من لا يصلح لمجالسة النظراء ، فكيف ينتدب للقاء السادات الكبراء ؟ ... والسيد عزيز الدولة ـ أعز الله نصره ـ يعين الكسير بالجبر ، فكيف يأمر بإخراج ميت من قبر ؟ ... ولو كنت بارئاً من هذه العلة لخشيت أن أصح فأفتضح . لأني ماأُنصفتُ إذ وُصفت . والسيد عزيز الدولة ليس كغيره من الملوك والسادات . . والإنسان يستحيي من نظيره ، فكيف من سيد العصر وأميره ؟ »[٢٠].

وفي رسالة الصاهل والشاحج تأكيد ثان لهذا الاعتذار . فقد جاء فيها على لسان الشاحج مُلغزاً قوله : إن عليَّ بن أبي طالب كان يكره دخول الأعمى المسجد[٢١] ، وأنه لم يكن يمنع من إلقاء السُّباطة على الضرير[٢٢]. فتجهم البعير الطيب القلب وقد فهم الكلام على ظاهره ، وأخذ في شتم الشاحج والتشنيع عليه . وكان مما خاطبه به قوله : « ويحك ، ألم يكفك أنك ادعيت كراهيته لدخول الأعمى المسجد حتى جعلته لا يمنع أن تلقى السُّباطة على الضرير ؟ فإن كان مؤمناً فكيف يأمر بذلك ؟ وإن كان كافراً فغير هذا الصنيع يجب أن يكون عقوبة الكافر . والعجب كلّ العجب لهذا الضرير له جزء في ملكك وهو يسمع خبط حوافرك والنَّبأةَ من شحيجك في ليلٍ ونهارٍ ، كيف لا يزجرك عن هذه المقالة ، إن كان قد علمها منك ؟ وكيف يصل إلى علم تلك ؟ هيهاتَ هيهات : ولو علم كان ضعيفاً ركيكاً خليقاً أن يحتمل كلَّ ضيم وأن يصبر على كلّ أذاة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبعض من لا يعرفه من العامّة يظنّه أنه من أهل العلم . وكذبت الظنون . لو كان كذلك لَوَلَبَ [٢٣] من حضرة السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء ـ أعز الله نصره ـ . إنه كما قيل : لا مخبأ لعطرٍ بعد عروس [٢٤] . ولكنه ـ المسكينَ ! ـ لا يهج لثناءٍ يُكذَب عليه . »

ويستفاد من هذا النص أن أبا العلاء كان له أيضاً جزء فى هذا الملك الذي يطلب إسقاط حق الخزانة عليه لصالح أولاد أخيه .

٣ ـ عزيز الدولة من خلال كتب التاريخ

وبعد ، فمن هو عزيز الدولة هذا الذي أملى المعري لأجله كتاب الصاهل والشاحج ؟

أما من خلال كتب التاريخ فإن شخصية عزيز الدولة تبدو غير عظيمة الخطر . فهو واحد من هؤلاء الحكام الكثيرين الذين تعاقبوا بعد سيف الدولة على حكم حلب ، سواء كانوا الحمدانيين ومواليهم ، أو من موالي الفاطميين ، أو من المرداسيين . وكان كثير من هؤلاء يدفعون عن أنفسهم شر البيزنطيين بالأموال والمعاهدات التي تثبت ضعفهم واستكانتهم . وخلاصة ما جاء عن عزيز الدولة في هذه الكتب أن اسمه فاتك بن عبد الله وكنيته أبو شجاع وأنه أرمنيّ الأصل . كان غلاماً لبنجوتكين مولى العزيز بالله الفاطمي والد الحاكم بأمر الله . ولاّه الحاكم حلب وأعمالها سنة ٤٠٧ هـ فدخلها في الثاني من رمضان من تلك السنة . ثم تغير عليه الحاكم فشقّ عزيز الدولة عليه عصا الطاعة ، ودعا لنفسه على المنبر ، وضرب باسمه الدنانير والدراهم . فأرسل الحاكم جيشاً لإخضاعه سنة ٤١١ هـ . فلما بلغ عزيز الدولة ذلك أرسل إلى بَسيل [٢٥] ملك الروم يستنجده ويستدعيه ليسلم إليه حلب . وخرج ملك الروم فعلاً بجيشه إلى أن وصل إلى موضع يعرف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

برج الديباج بينه وبين المصّيصة[٢٦] عشرة أميال . ثم جاءت الأخبار بموت الحاكم ، ورجوع الجيش المصري ، فأرسل عزيز الدولة إلى بسيل يعلمه أنه قد انتقض ما كان بينهما من الشرط ، ويطلب منه عدمَ مواصلة سيره إلى حلب ، وأنه إن ظهر كان هو والعرب حرباً عليه . وكان الناس حين سمعوا بمقدم جيش الروم أجفلوا وجلَوا عن ديارهم ، فسميت هذه الجفلة جفلة عزيز الدولة لأنها كانت بسببه . فعدل بسيل بجيشه عن حلب واتجه إلى (منازجرد) شمالي بحيرة (وَان) وأخذها من الخزر . ولما اطمأن عزيز الدولة على نفسه بعد موت الحاكم جاءته الخلع السلطانية من الظاهر لإعزاز دين الله ، الخليفة الفاطمي الجديد الذي تولى الحكم سنة ٤١١ هـ بعد وفاة ـ أو اختفاء ؟ ـ أبيه . ولكن سرعان ما دخل عليه غلام له هنديّ يدعى تيزون أو توذون فقتله وهو نائم في فراشه في قلعة حلب في الرابع من ربيع الآخر سنة ٤١٣ هـ . ويقال إن الفاطميين أنفسهم كانوا وراء هذا الاغتيال[٢٧] .

وفي كتب التاريخ أيضاً إشارات قليلة إلى أن عزيز الدولة هذا كان محباً للأدب والشعر ، وفيه يقول شاعره المفضّل بن سعيد العزيزي :

ابقَ للمعروف والأدبِ آمناً من صولةِ النُّوَبِ
يا عزيز الدولة الملك الـ . . . مُنتَضى للمجدِ والحَسَبِ
كيف يخشى الدين حادثةً وعزيز الدين في حلب[٢٨]

٤ ـ عزيز الدولة من خلال الصاهل والشاحج

أما صورة عزيز الدولة من أقوال المعرّي في الصاهل والشاحج فهي أدق وأسمى مما هي عليه عند المؤرخين . فهو ملك عالم أديب ، عارف بغوامض القريض ، « أقام السوق للفصاحة ، وأذكى القلوبَ بالتذكرة ... وهو على إدراكه جدّ العظماء ، ضارب بالسهم الفائز من سهام العلماء ... وليس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كذلك جماعة الملوك لأنهم يُرهَبون فلا يُؤدَّبون . » وهو كما نطق به الكتاب الكريم من قوله : « ولما بلغ أشدَّه آتيناه حكماً وعلماً » . وقد رفع عزيز الدولة من قدر الشعراء « يُعلي مجيدَهم ويكرمه ، ويعطي المقصر فلا يحرمه ، وينقد المنظوم السائر نقد الصيرفي ماله ، ويعرف مُشكِله معرفة السعدي رماله» . كما أن له مجلساً يجتمع فيه الفقهاء وأهل الكلام والأدب والشعر .

وهو إلى ذلك ملك أحبته رعيته أشد الحب ، حتى إن حبه « قد غمر أهل حلب ، وغطّى أعينهم . ومن الكلام القديم : حبك الشيءَ يعمي ويصم » ، وحتى لترى بينهم من « يُغلون في وصف هذا السلطان ـ أطال الله بقاءه فيزعمون أن كفّه أسمح من اللافظة (٢٩) ، وأن قلبه أشجع من من قلب أُسامة ، وأنه بالرعية أبر من الوالدة ، وأن رأيه أهدى للضلال من جدْي الفرقد ، بل من الشمس الطالعة . ويدّعون له ضروباً من الفضائل متباينات لا يجتمع مثلها في الآدميين ... » .

وهو من بعدُ ملك حنّكته التجارب ونجّذته مقارعة الشؤون . فتراه يعالج بالحكمة أُمور أهل البلاد في الحواضر ، وأمور العرب في البوادي . « وهو وإن كان مقيماً في حلب ، يؤثر فعله وسياسته فيمن وراء الدُّروب » . وقد عرف كيف يؤمن السابلة ، ويمنع عدوان العرب من سكان البوادي على المسافرين ، « كما أصلح أمور أهل البلاد مع هؤلاء العرب فلم يجتمع عليهم خوفان : خوف العرب وخوف الروم » .

وهو أخيراً محارب شجاع « يتبذل تبذل الشجعان . ورعيته يشفقون عليه إشفاق الجبناء » وقد حدث من رآه بحضرة ملأ عظيم من الأمراء والفرسان « يعمل بسيفين عن يمين وشمال ، والفرس يجري به أشد الجري . . وهذا عجب من الأنباء . وهو أحسن من المملكة ، لأنه حلية في النفس ، والمملكة حلية في الجسم » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وخلاصة القول : إن الصورة التي يرسمها أبو العلاء في الصاهل والشاحج لعزيز الدولة أدعى للمهابة والإعجاب والتقدير من الصورة التي خصه بها المؤرخون القدماء . وقد يكون أبو العلاء ـ بوصفه معاصراً لهذا الأمير ـ أدرى بأحواله ، وأوعى لما كان يقال عنه ، وأكثر اطلاعاً على حقيقة أمره من المؤرخين الذين كتبوا عنه بعد عصره . ولكننا لا نشك مع ذلك في أن أبا العلاء قد أضفى على الصورة كثيراً من التهاويل جرياً على طريقته المعروفة في ثنائه على معاصريه كباراً وصغاراً . فقد كان إفراطه في تقريظهم لا يعدله إلا تفريطه المتعمَّد في حق نفسه .

٥ ـ سبب تحلية الكتاب بهذا العنوان

بطل الكتاب ـ إن لم يكن بدٌ من اعتبار الكتاب قصة ذات بطل ـ هو الشاحج ، أي البغل العاقل الرزين الصابر الساخر الذي قدر له أن يُرتبط إلى سانية تلك الأرض النكداء التي املي الكتاب لطلب وضع حق الدولة عنها : فهو ما يزال يدير هذه السانية في الحر والقر ، وينقل خطاه الرتيبة في مدارها الأغبر من البكور حتى العتمة على اختلاف الفصول .

وفي ذات يوم يحس هذا الشاحج النبيه ، وهو معصوب العينين ، بأن فرساً كريماً وقف بالكثب منه بعد أن نزل عنه فارسه ليشرب . فيسأله عن مَقْدمه ومقصده ، ويدور بينهما حوار طويل يفسر عنوان الكتاب .

وليس معنى هذا أن الحوار سيقتصر على الشاحج والصاهل في الكتاب كله . بل هناك حيوانات أخرى تتدخل في الحوار فرادى وجماعات . وهذه الحيوانات هي الضبع والفاختة والجمل والثعلب . وعلى هذا يعتبر الكتاب حلقة في سلسلة ما صُنف في الأدب العربي نثراً وشعراً على ألسن الحيوان . وهي سلسلة كثيرة الحلقات من المصنفات والمنظومات المطولة تبتدىء بكتاب كليلة ودمنة . على أن كتاب الصاهل والشاحج يختلف عن تلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المصنفات اختلافاً كلياً من حيث الغرض والتبويب كما سيتضح ذلك من تلخيص محتواه فيما يلي :

٦ ـ أقسام الكتاب

يمكن تقسيم الكتاب إلى قسمين يتميز أحدهما من الآخر من حيث الشخصيات المتحاورة ومن حيث موضوع الحوار .

أما القسم الأول فالكلام يدور فيه بين الشاحج والصاهل . ثم يشارك الجمل في الحديث مشاركة أساسية ، بينما يبقى تدخل من الفاختة والضبع تدخلاً جانبياً . وموضوع الحديث في هذا القسم هو شقاء الشاحج في عمله ورغبته في الاتصال بعزيز الدولة ليرفع إليه شكواه ، وليطلعه على ما عنده من علم وأدب .

وأما القسم الثاني فالحديث يدور فيه بين الشاحج والثعلب وحدهما . وموضوع الحديث هو جلاء الناس عن أوطانهم بعد أن ترامى إليهم نبأ نهوض عظيم الروم على رأس جيشه واتجاهه نحو بلادهم .

٧ ـ عرض لمضمون القسم الأول من الكتاب

الشاحج يشكو شقاءه ويرجو الصاهل أن يحمل رسالة شعرية منه إلى عزيز الدولة : بعد مدخل لبق يسلم فيه على الحضرة العالية ويعتذر لتقصيره في حقها ، يذكر أبو العلاء حاجته ويعرض قصة الأرض ورغبة أولاد أخيه في أن يصفح عزيز الدولة عن حقه فيها . ثم يستطرد إلى وصف هذه الأُرَيْضة غير الأَريضة (٣٠) ذات الماء الشحيح الذي يتعب الشاحج في إصعاده ، فهو من ذلك « في سفر لا ينفد ، وعذاب يجدد . يكف بصره عند الفجر ، فينظر إلى القمر دون الشمس ، ويومه في الشقوة نظير الأمس » . ولا يمتنع في قدرة الله أن يرد هذا الماء فار على صهوة فرس كُمَيت ، فيرتبط

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فرسه بالكثب من مسيل الماء ويمضي ليشرع في نمير بارد . ويحسّ الشاحج ، وهو معصوب العينين ، بوقوف الصاهل قريباً منه ، فيبتدره سائلاً : من أين طرأ علينا الكريم ؟ وينعقد بين الاثنين حوار رائع طويل نفهم منه أن الفارس قادم من مصر وهي « صُبرة الذهب [٣١] ، وأم النعيم ، وينبوع النَّصَفة ، ومتجه « إلى حضرة مواسٍ آسٍ ، قد بسط آمال الناس » ، أي إلى حلب ، حاضرة عزيز الدولة . ويصف الشاحج ما يلقاه من سوء معاملة سائسه الكسلان الذي يسرقه عباءته في الشتاء ليستدفىء بها ويتركه « يمارس قرة الأشهبين » ، ويقصّ كيف يعيره صاحبه يوم العيد إلى صبيان الحي ليركبوه ويتفننوا في تعذيبه بينما يفرح كل مخلوق في ذلك اليوم ويستريح من أعباء العمل ، ويتذكر أيام هو فلوٌ [٣٢] يرتضع أمه الهجينة ، فيوازن بين ماضيه المرح وحاضره التعس . وإنه ليهم أحياناً بالتمرد والعصيان ، ولكنه سرعان ما يعود إليه حجاه خوف السائس وعصاه .

ويلحظ الشاحج بعد أن بسط شكواه الطويلة أن الصاهل لا يهش لكلامه ، فيذكره صلة الرحم وحق الناؤولة ، ويأخذ في ندب حظه العاثر الذي لعله شنَّع صوته في سمع خاله .

الصاهل يسخر من شكوى الشاحج وادعائه القدرة على النظم :

ولكن الصاهل لا يُقابل شكوى هذا المعذب المسكين إلا بالسُّخرية والازدراء فيتهمه أنه مدَّع وينكر أن يكون له خالاً ، وأين الثريا من الثرى ؟ « وإذا دعا العبد سيد القوم عمه فغير آمن أن يرجع لطيم الوجه » . ثم إن الشقاء قدر لا يقدر على رده أحد ، فليس للشاحج إلا الصبر على بلواه . وهل يخلو حيوان أو آدمي من أن يكون مبتلى بنوع من الشقاء ؟ وأين تقع شكوى الشاحج وأبناء جنسه مما تلقاه الخيل العراب من ويلات الحروب ، حين يزج بها فرسانها في زحمة الأسنة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والسيوف ، بينما لا تستخدم البغال في الحروب إلا لحمل الأثقال ؟ ومع ذلك فإن بني آدم لا يتوانون عن أكل لحوم الخيل ويأنفون من أكل لحوم البغال . فيا لجحود الإنسان ! أرأيته كيف يحسن جزاء الإبل التي تحمله في أسفاره البعيدة فيبقر بطونها ليشرب الماء الذي حملها على اختزانه فيها ، أو يشرب دماءها فصداً في الجدب ؟ والبقر والمعز والضأن وسواها من البهائم الآهلة ، هل سلمت يوماً من أذى الإنسان ؟ فكيف تسلم منه الوحش الباهلة ؟ ويمضي الصاهل في تصوير المظالم التي تلقاها على يد الإنسان كل الحيوانات الوحشية كالحمر والأوعال والنعام والظباء والضباب واليرابيع والحيات . . . حتى لتراه يبطش بالحيوانات الضعيفة التي لا تقوى على الدفاع عن نفسها كالأرانب والحمائم ، إنه لم يترك من وحش الأرض ولا أحناشها ولا هوامّها شيئاً إلا أكله أو قتله أو اتخذه دواء يستشفي به .

وينتقل الصاهل إلى تفنيد مزاعم الشاحج حين يدعي لنفسه القدرة على نظم الشعر . وإذا كان لحيوان أن يقول شعراً فالخيل أولى بذلك من سائر الحيوان لأنها رفيقة الشعراء والرجاز في حلهم وترحالهم . ومع هذا فلم يعرف أن فرساً ، ادعى القدرة على موزون القول ، لأن الموزون فضيلة الإنسان . والإبل تلي الخيل في طول مجاورتها لشعراء العرب ، ولم ينقل الرواة عنها بيتاً واحداً من الموزون . ثم إن صوت الشاحج نوعان : حمحمة وشحيج ، وهو صوت لا مسلك له في الموزونات . وأصوات الإبل على كثرة تفننها بين حنين وأطيط وسجع وتحوّب وعجيج . . . هي أيضاً أصوات لا تتألف منها الأوزان . وكذلك أكثر أصوات الحيوان كالعصفور والغراب لا يمكن دخولها في المنظوم لأنها تقطع الأجراس أو تمد . فخير للشاحج ، والحال هذه ، ألا يعرض نفسه لضحك الآدميين ولا سيما أن عزيز الدولة عالم بغوامض القريض !

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشاحج يعنف الصاهل على كبريائه ويفند ما ادعاه من عجز الحيوان عن القريض : وينبري الشاحج ، وقد سمع ما سمع ، إلى الرد على الصاهل حين أنف أن يكون له خالاً . « فكل متكبر مقيت . . . والحازم يرى التواضع فرضاً لازمـــاً . . . لأن عقله يُعلمـه أن الله تعالى قادر على أن يخلق من يفضله » . وإذا كان الشاحج قد ادعى قرابة الصاهل فلأنها أمر مشهور ، « فلون الحبشي يشهد أنه حامي . . . ومشي الدابـة على أربـع يُعلم أنهـا بهيمة » . ثم يخوض الشاحج في حديث طريف في القرابة وأصولها وأجناسها وفروعها . وإذا جاز للرسول ﷺ أن يقول للرجل من هلال بن عامر : يا خالي ، لأن بعض نسائهم ولدت بعض أجداده ، وللشاب المقتبل أن يقول للشيخ المسنّ : يا عم ، على سبيل التقرب والتحنن ؛ وللشيخ الكبير أن يقول للفتى الناشىء : يابن أخي ؛ وللجار أن يقول لجاره : يا أخي ، وقد يكون أحدهما رومياً والآخر فارسياً أو عربياً ؛ فلِمَ لا يجوز للشاحج أن يقول للصاهل : يا خالي ، وإن لم يكن خاله لحّاً ؟ أوليس من الثابت المشهور أن لجنس البغال خؤولة في جنس الخيل ؟

ويسخر الشاحج من نصيحة الصاهل إياه أن يصبر على بلواه ، بينا هو يظهر من الضيق في الملمّات الصغيرة ما لا يُبدي الشاحج بعضه في كبائر الأمور . ألا ترى الصاهل يفحص بيديه جشعاً وحرصاً يطلب الشعير ، وهو يعلم أن سائسه سيحمله إليه بعد ساعة ؟ ألا ترى كيف يحمحم يريد الماء وفارسه قد مضى يملأ له الدلو من البارد النمير ؟

ثم يردّ على الصاهل ما أنكره عليه من قدرته على النظم ، ويطلب إليه أن يقيس الأمر على ما روته العرب من أرجاز الضباب . والرجز شعر ، لأن الشعر جنس والرجز نوع تحته ، ولا صحة لزعم الزاعم أن الرجز ليس بشعر . . . ثم كيف يزعم الصاهل أن صوت الشاحج لا ينبني منه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النظام لأنه جنسان حمحمة وصهيل ، وهذا صوت الناقوس وهو جنس واحد يتأوّله علي بن أبي طالب شعراً (٣٣)؟ بل إن عدي بن زيد ليتأول صمت الشجرة التي كان يشرب عندها ملوك الحيرة شعراً (٣٤).

ويتمنى الشاحج أخيراً لو يُقـــاد برسنه إلى مجلس عزيز الدولة الذي يجتمع فيـه الفقهاء وأهـل الكلام والأدب والشعر كي يلقي عليهم بعض المسائل ويتركهم يخوضون في مناقشتها وتلمّس الإجابة عنهـا إن استطاعوا إلى ذلك سبيلًا !

رغبة الصاهل والشاحج في التحكيم واختلافهما في اختيار الحَكَم : وكان رد الصاهل غاية في القسوة ، لأن الشاحج لم يكتف بادعاء القدرة على النظم الذي هو طبـع في غريزة الآدميين وحدهم ، حتى ادعى الأشياء التي لا يُتَوصّل إليها إلا بالدراسة والدربة والتجربة كالعلم بالكلام والجدل والفقـه وأحكام الشعر اللطيفـة التي كان يجهلهـا فحول الجاهلية ، حتى لكأنمـا نُقلت إليه روح أفلاطون !

ويقترح الصاهل على الشاحج أن يجعلا بينهما حكماً يرضيانه . وكان من المستحسن اختيار الضب لأنه قاضي البهائم ، ولكنه بعيد المنزل . فليعمدا إذاً إلى تحكيم الفاختـة التي كانت قـد وردت المـاء لتشرب ، فهي من شعراء الطير .

ويسارع الشاحج – وقد سمـع هـذا الاقتراح — إلى اتهـام الصاهل بالتناقض . فهو ينكر على الشاحج دعوى الشعر بحجة أنه يجمع في صوته بين الساكنين من غير وقف . وها هو ذا الآن يجعل الفاختة من شعراء الطير ، وهي مثله تجمع في صوتها بين الساكنين من غير وقف . ثم إن الفاختة عرفت بالكذب حتى ضرب بها المثـــل في ذلك (٣٥) ؛ فكيف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يرضى بحكومتها ؟ إن من الخير للصاهل إذا شاء التحكيم أن يعدل إلى ذوات الأربع من أمثالهما وأن يُحكِّم واحداً من هذه الإبل المقبلة للورد .

ويدافع الصاهل عن الفاختة لأن اتهامها بالكذب افتراء عليها وتخرُّص . وما أكثر ما كذب بنو آدم وتخرصوا على الطير والبهائم ! أما التقاء الساكنين في حشو الكلام من غير وقف فإن مثل هذا يوجد في شعر يونان ، ولكنه نادر في شعر العرب ، لأن العرب قد تهذَّب كلامهم وخلص نظامهم . وأما ميل الشاحج إلى تحكيم الإبل فصنف من الجهل ، لما عرفت به من قلة اللب . ومن يدري ؟ لعل الشاحج عدل عن ذوات الأجنحة إلى ذوات الأربع رغبة منه في أن يَرُدَّ الحكومة في نهاية المطاف إلى بعض ذوات الحافر من أعمامه !

إيقاع الفاختة بين الشاحج والجمل ثم تصالحها : وفي هذه الأثناء تكون الفاختة قد سمعت ثناءَ الصاهل عليها كما سمعت ما قاله الشاحج في إنكار حكومتها واتهامها بالكذب « فترفّ » عينها للصاهل تغمز على الشاحج وهو لا يراها لأنه معصوب العينين ، وتنطلق إلى البعير الوارد فتجعل القول الذي نطق به الصاهل من وصفه بالجهل محكيّاً عن الشاحج » فيمتلىء صدر أبي أيوب (٣٦) غضباً وحقداً . حتى إذا قرب من الشاحج عضّ جحفلته عضَّةَ حَنِقٍ مغتاظ فيضجُّ الشاحج من فرط الألم ويؤنّب البعير على خفَّته وسفاهة حلمه ، ويذكره بماله عليه من فضلٍ : أليس هو الذي يتعب في جمع هذا الماء لورده ؟ ولولاه للقي في سبيل رِيّه عنتاً كثيراً . كما يلومه حين لم يستحيِ أن ينقاد لطائر صغير ناسياً ما بين الإبل والطير من عداءٍ مستحكم . أليس الغراب ينقر أعين الإبل الطليحة في الفلاة ، حتى إن الرّيشَ ليوضع على الإبل المصابة بالدَّبر ليُنَفّـِر عنها الطير ؟ إن الجمل َقسيم البغل في البلوى ببني آدم . ولقد كان ِلزاماً عليه أن يصفح لو كان ما وشت به الفاختة حقاً ، فكيف وهو الكذب الصُّراح ؟ ويطلب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشاحج من الجمل أن يُقيدَه من نفسه ، وإلاّ دعا عليه بما قد تصيبه منه قوارع الدهر ، كأن يُسلَّط عليه أجيرٌ عنيف يخصُّه بأثقل الوُسوق ، أو أن يُبتلى بهوى ناقة شارفٍ همَّةٍ (٣٧) يفضحه هواها في الإبل . أما إذا خرج إليه من حقه فإنه سيدعو له بما يجلب إليه سعادة الدهر ، كأن يرزقه الخالق » هَجْمةً عُوناً وأبكاراً (٣٨) ، كأنها عذارى ، يتخير فيها على عينه تَخيُّرَ أبي قابوس (٣٩) في قِيان العراق ! » .

ويهَشُّ الجمل ، وقد طمع أن يصيبه خير هذا الدعاء المشوِّق ، فيرضى أن ينصف الشاحج من نفسه ، ويقدّم له مِشفره ليقتاد منه . فينزل له الشاحج عن حقه ، ويطلب منه مقابل ذلك أن يقضي له حاجة سبق له أن كلَّف الصاهل مثلها ، فأبى هذا إلا عقوقاً وأذيَّة ، والله جازيه بما صنع . والحاجة المطلوبة هي أن يحمل عنه رسالةً إلى عزيز الدولة . وقد عدل الشاحج عن الشعر الذي جرَّ عليه من الملاحاة والأذى الشيء الكثير . وهو يريد أن يجعل رسالته إليه هذه المرة رسالة مَلاحِن وألغاز ينحو بها ما نحاه ابن دريد في كتاب (الملاحن) ، وابن فارس الرازي في (فُتْيا فقيهِ العرب (٤٠)) . « وإذا ألقيتُ إليك ماتيسر منها عندي فأحسن حفظَهُ وخزْنهُ . وإذا بلغت في سفرك مَبارك الإبل من الحضرة الجليلة فارفع صوتك بالعجيج ، فلعله يفهم عنك . ففي نحو حديثنا ضُرب المثل : كفى بِرُغائها منادياً (٤١) » .

رسالة الملاحن : ويعتذر البعير لما بدا منه من حدة نحو الشاحج أول الأمر ، ويجيبه إلى طلبه ، ويسأله أن يلقي عليه الألغاز التي يريد إبلاغها عزيز الدولة . فيشرع الشاحج في سرد ملاحنه على أسماع البعير . وهي قسمان : أولها مجموعة من الكلام الملْغَز المعقود على أخبارٍ تتصل بعلي بن أبي طالب والأئمة من أبنائه . وليس من شك في أن المعرّي إنما اختار البدء بهذا القسم لاستثارة اهتمام عزيز الدولة والي حلب من قبل الفاطميين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المتشيعين لآل البيت . أما القسم الثاني فالألغاز فيه معقودة على أخبار تتصل بالشاحج نفسه وبغيره من البهائم والناس والبلاد .

ولكن أبا أيّوب كان « قليل اللبّ » حقاً . فقد أبى إلا أن يفهم هذه الملاحن على ظاهر لفظها ، ثم انبرى يوسع الشاحج سبّاً وتعنيفاً : « يا بغلُ ! يا نغلُ ! يا وغلُ ! لعِنتَ ورعِنتَ (٤٢) وطعِنتَ ! ربُّك ينتقم منك ... أعَلى أهل البيت صلى الله عليهم تَلتع (٤٣) ؟ لعلك لهم ناصب ، فيصيبكَ عذاب واصب ! » .

ثم يشرع في تفنيد ملاحن الشاحج واحداً تلو الآخر في جواب طويل يستغرق لوحده ربع الكتاب . وفي هذا الجواب من التعنيف والسخرية الشيء الكثير ، ولكن ما فيه من العلم والأدب والشعر والأمثال أكثر . ويختم البعير جوابه المسهب الممتع مؤكداً رفضه أن يحمل مثل هذه الرسالة الشائنة إلى الحضرة العالية : « وإني لأظن الصاهل أصاب في جفوتك ، ووفّقَ لمّا أعرض عن النهوض في حاجتك . ولعله لم يَضِحْ له من أمرك وكذبك ما قد وضح لي واستنار . فبُعداً لك ، وإلى ربك مآبك ، فيغفر لك أو يعاقبك ، وهو علاّم الغيوب ! » .

فيأسف الشاحج أن يرى فِراسته تخيب في أبي أيّوب ويشرح له ما غمض عليه من ملاحنه ، مستعيناً بالآي والأحاديث والشواهد الشعرية الغزيرة . ثم يلوم نفسه على لجوئه بعد ذوات الحافر إلى ذوات المنسم ، مع أن أولئك أقرب إليه من هؤلاء : « وإياي أُلحِقُ اللائمةَ ؛ إن كان الصاهل حسدني ، فالهادر أولى أن يُبعدني ، لأن الحافر أقرب إليّ من المنسِم . ولعلك من ولد عسكر (٤٤) الذي أهداه الثقفي إلى ابنة أبي بكر فشهدت عليه يوم الجمَل ! » .

ويسارع أبو أيّوب ، وقد وضحت له الحقيقة ، إلى الاعتذار ، فإنّ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مشاقُّ الحياة أوهت فكره وأضعفت حافظته ، وما أجدر الشاحج أن يلتمس سواه رسولا . وإذا كان الصاهل عجز عن حمل المنظوم ، وهو الأخفُّ ، فكيف يستطيع هو حمل المنثور ، وهو الأثقل ؟

ويصدّق الشاحجُ البعيرَ فيما وصف به نفسه : « أما وصفك نفسك بالنسيان وقلة الفهم فصدقت . وفيك قال القائل :

لقد عَظُم البعير بغير لبٍّ فلم يستغن بالعِظَمِ البعيرُ . »

ثمَّ يأخذ بالدعاءِ على البعير دَعَواتٍ مُلْغزة ما إن ينتهي من سردها حتى يسارع إلى شرحها خيفةَ أن يُسيءَ فهمَها كما فعل في المرة الأولى .

وهذا الفصل الطويل المعقود على الملاحن والذي يبلغ لوحده ثلث رسالة الصاهل والشاحج يمكن اعتباره كتاباً من أحفل ما عرفته المكتبة العربية في هذا الباب .

حوار بين الشاحج والضّبع :

ثم تَرِدُ أمُّ عامر - أي الضبع - وتسمع كلام الشاحج فتستدلُّ به على علمه وأدبه . وتود أن تسأله سؤالاً فيُصيخ إليها وهو يعلم أنها أحمق البهائم فتسأله إن كانت هي المَعْنيَّة بقول الشاعر :

تَصدُّ الكأسَ عنّا أمُّ عمروٍ وكان الكأسُ مجراها اليمينا

فيجيبها ساخراً أن نعم ، وأن الشاعر الآخر إنما عناها أيضاً حين قال :

غَرّاءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارضُها تمشي الهُوَينا كما يمشي الوَجي الوحِلُ

لأن الضبع تهرُّ عند الطعم ، فهي هُرَيرَةُ لا محالة ! فتسرّ الضبع لما سمعت من جوابه وتعرض عليه أن تعينه على إيصال رسالته إلى الحضرة العالية بمعونة صديق لها من كلاب حلَب : « فألقِ إليَّ ما تريد ، ألقهِ إلى الكلبِ الحلَبي ، يُلْقِهِ الكلبُ إلى صديقه من الكلاب الصائدة ، يُلقِهِ ذلك إلى البازي فيبلغ لك ما في نفسك » . ولكن الشاحج العاقل

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يأبى سلوك هذا الطريق الملتوي ويُعلن يأسه من إيصال رسالته إلى عزيز الدولة . واليأس إحدى الراحتين .

وعند هذا ينتهي ما سميناه بالقسم الأول من الكتاب .

٨ — عرض لمضمون القسم الثاني من الكتاب

نبأ نهوض ملك الروم إلى أرض المسلمين : ويجيء الثعلب وارداً فيحيي الشاحج . وبينا هما يتبادلان التحية سمعا ضَجَّةً في المصر ، فطلب الشاحج من صاحبه أن يتقصَّى له الخبر . « فيمضي ثُعالَةُ مبادراً ، ثم لا يلبث أن يعود فيقول : العامة يخبرون أن زعيم الروم قد نهَدَ (٤٥) إلى أرض المسلمين » . فيسكت الشاحج هنيهة وقد خُيِّل إليه أن الخبر مكذوب ، لأن ما بين عزيز الدولة وزعيم الروم من العهود والمواثيق يمنع اعتداء أحدهما على الآخر ، حرصاً على مصالحهما كِلَيْهما .

ما أشبه الناطقين بعالم نطقهم ! : ويفكر الشاحج فيما تلقاه الرعية من عَنَت كلما وقع خلف بين الملوك « حتى تُحْمَدَ الوَحدةُ ويُثنى على العُقم » . ويسلمه فكره إلى الموازنة بين الناطقين ونطقهم . فالإنسان الوحيد على وجه البسيطة كالحرف الوحيد إن لحقه تغيير فيَسير (٤٦) . أما إذا كان للرجل صاحب أو صاحبة فمَثَلُهما مَثَلُ ما كان من الكلام على حَرْفَين ، يتغيّران بالقلبِ (٤٧) . وتلك حادثة أمنها الوحيد . ثم تزداد احتمالات التغيير في الكلمة كلما زاد عدد حروفها .

ثمَّ تتسع شيئاً فشيئاً دائرة هذه الموازنة ، ويستسلم الشاحج اللغوي الفيلسوف إلى مقارنات شيقةٍ بين أصناف الناس وأصناف الكِلِم . فالدُّول كالجُمَل ، وأصحاب السيوف كالأسماءِ ، وغيرهم من الناس كالأفعال وحروف المعاني . وقد تُبنى الجملة من الأسماء دون الأفعال والحروف ، ولكنها لا تبنى من الحروف والأفعال دون الأسماء . والملوك في اختلاف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قدرتها واتساع سلطانها كالأفعال في اختلاف مدى تعدّيها إلى مفعولٍ أو أكثر . والوحيد من الناس مثل الفعل اللازم .

والأعمى والأعرج مثل الفعل الذي لا يصل إلى العمل إلا بحرف جرّ. ومن لزم بيته من الناس فهو مثل فعل التعجب الذي ليس له فاعل يظهر . وقد تصيب الأقضية الإنسانَ فتعطله عن العمل ، فيكون مَثَـله مثلَ الفعل الذي ألغي عمله ... الخ .

أزفت ساعة الهول : ويُسفِرُ الصبح . ويبصـر الشاحج الناس وهم يجلون عن بلادهم ، فيعرف أن ساعة الهول قد أزفت . لقد قربت بأساء الضياون (٤٨) بعد أن يرحل أهلها عنها . كيف لا ، وبعض الروم في جولاتهم يتصيدونها ؟ وإذا عُيِّر بعض بني أسد بأكل الكلاب ، فليس لأكل القطط ذكر في أخبار المتقدمين . ولقد قربت كذلك آجال الدّيكة والدواجن لأن أصحابها سيذبحونها قبل رحيلهم أو يعلقونها من قوائمها في إكاف (٤٩) الدوابّ فتأخذ في الصراخ طوال المسير . « ولكن صبراً أبا عقبة (٥٠) ! فإن مع العسر يُسْراً . الغمرات ثم ينجلين (٥١) . وبعض الشرّ أهون من بعض . هذا خير لك من أن تكون دُلّيت في وَطيسٍ حامٍ أوغَلَتْ بك إحدى البُرَم (٥٢) عائماً في ملح وماء . »

وهكذا يمتزج في كلام الشاحج الجدّ بالهزل والفاجع بالساخر وعلم اللغة بمرارة الواقع . ولا ينسى الشاحج خلال كل هذا الوصف تبكيت القوم على جهلهم وإسراعهم في الرحيل فقد كان عليهم أن يُعملوا الفكر ويتّكلوا بعد الله على سياسة عزيز الدولة وحنكته وشجاعته .

من صور الجلاء : وفي هذا الوصف الطويل على لسان الشاحج لجلاء الناس عن بلادهم صور حيّة منتزعة من صميم الواقع تظهرنا على مدى اتصال أبي العلاء بحياة جمهور عصره ومعرفته بتفاصيلها على رغم العزلة التي ضربها على نفسه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فهذا قاضي المعرَّة ترك البلدةَ ولحق خائفاً بسقط رأسه (بالِس)، شأن المنادى المبني على الضم، إذا نُوِّن للضرورة رجع إلى أصله وهو النصب.

وهذا صاحب المعونة في المعرَّة أصبح مثل (ما) الحجازية إذا بطل عملها فصارت كالتميمية.

وهؤلاء عدُول المعرَّة خلعوا طيالِسهم وعمائمهم وغيَّروا هيئاتِهم، وتهيَّئوا للنفْرِ إن صاح الصائح، كالأسماء التي تتغير عن هيئتها في ضرورة الشعر.

وهؤلاء البزَّازون أصابهم الهلع فأخذوا يجمعون بضاعتهم ويخلطون في جمعها بين ثياب القطن وثياب الكتَّان، ويضيفون البُرودَ الغليظة إلى البرود الرقيقة، فكان مثَلُهم مثَلَ الشاعر لا يبالي إذا سلمت له القافية أن يجمع في رويِّها المقيَّد أشتات الحروف.

والصيدلاني، لقد كان دكانه مرتَّباً على أحسن هيئة، فانتقض ترتيبه، واختلط اهليلجه بالعنَّاب والصبار.

وكذلك الفامي[٥٣]، اختلط في دكانه الزبيب بالتين، والجوز باللوز.

والحجَّام أخذ أدواته وذهب لشأنه في أرض الله الواسعة، أينما وقع خَدم، وأسال الدم.

والصائغ خمَد أجيج ناره وحمل أدواته للهرب، بعد أن كان يحلِّي أصابع الحِسان بحلق الذهب وآذانهم بالرعاث. فشأنه شأن الشاعر من شعراء عزيز الدولة كان يصوغ في مدحه الشعر الجميل «فأدركته علَّة من أمر الله عاقت الخَلَدَ عن الفكر، واللسانَ عن حسن الذكر.»

ولا ينسى الشاحج نفسه، فيُخيَّل إليه أن العامل المشرفَ على أمره قد يشعر باليأس فيذر الاستقاء برهة، فيفوز هو بالراحة بعض ساعةٍ من اليوم، ويكون كما قيل في المثل: نعيم كلبٍ في بؤس أهلِهِ[٥٤]. ولكن أيُّ راحة هذه! إنه لا بدَّ أن يقرَّب حينئذ إلى ما هو شر من الاستقاء.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سيؤتى به ويحمل عليه من الأمتعة ما لا ينهض بمثله ، فيشعر بالحسرة على شقائه الأول ويتمنّى العودة إلى مداره . ثم يلهمه الله أن لا خلاص له إلا بسوء الخلق . فإذا رأى عجوزاً تريد أن تركب فوق الجمل ، أو شيخاً شرّاً من تلك العجوز ظل ثابتاً في مكانه وأبى أن يتقدّم أو يتأخر :

إنك إن حمّلتني ما لم أُطِقْ
ساءَك ما سرّكَ مني من خُلُقْ

والقائمون على تحميله يتساءلون ويقولون ! ما كانت هذه له بعادة . ثم يضربونه عصيّاً كثيرة وهو لا يزيد على خبط الأرض بالحوافر .

وهؤلاء يهود المعرّة ، وهم فِرَقٌ ثلاث : صبّاغون ودبّاغون وحاكة ، قد أصابهم الذعر وامتلأت نفوسهم هلَعاً على أموالهم ، فهم يردّون إلى الناس متاعهم على عَجل ، ويجمعون ما لديهم من أموال وبضائع ملتمسين وسيلة للنجاة . وما أدق صورة ذلك اليهودي الذي أحسّ بقرب الكارثة فغدا وجهه مثل الفِرْسِكَة (٥٥) . ثم راح يستخرج من مخبأٍ في داره دنانيره التي ادّخرها لمثل هذا اليوم ، وأخذ واحداً منها فوضعه في فمه وعضّ عليه بأسنانه حتى لا يبدو منه إلا بمقدار قلامة ظفر ، وأسرع إلى المُكارين يكشر لهم عن ذلك الحبيء . ويكون هؤلاء قد كَرَوا دوابّهم بالدراهم ، فتحملهم الرغبة فيما ظهر لهم من الدينار على الغَدر بمن اكترى منهم . واليهوديّ يُبْرِزُ لهم الدينار من بين أسنانه جزءاً فجزءاً كلّما أجابوه إلى بعض ما يطلب . حتى إذا تمّت الصفقة بصق الدينار المُتَلَهِّبَ في أيديهم ومضى فائزاً بعَيْرٍ أو بغلٍ يحمل عليه نفسه ومتاعه .

وما أكثر المشاهد الفاجعة والساخرة بعد كل هذا . فهذا حِمْل يَتَشاوَل تحت امرأة حسناء وهي تصيح وتستغيث بالمكارين كلما مال الحمل بها ذات اليمين أو ذات اليسار .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذا رجل فقير جعل أربعة من أولاده في مِكْتَلَيْن حملهما على ظهر حمار ضعيف .

وهـذه امرأة حمل عنها زوجها طفلَهـا وتقدّمها خطوات في أفواج النازحين ، فهي تنظر إلى ولدها من فوق رؤوس الناس ، وولدهـا ينظر من فوق رؤوس الناس إلى ما في ثديَيْها .

وهذا رجل خبأ ما لا يقوى على حمله من سَقَط المتاع في حفرة احتفرها في داره ، وهو يظن أنه ستر خبيئته عن العيـون . وأنى يكون ذلك وآثار الحفر والطمر تدلّ على ما خبأ ، حتى إن مكانه لا يخفى على من في عينيه الهُدَبِدُ والسمادير (٥٦) .

جلاء أهل المعرّة : ثم يحدثنا الشاحج عن أهل المعرّة الذين اعتادوا كلّما سمعوا بخروج ملك الروم أن يرحلوا إلى (تَلّ مَنّيسَ) . وهم في ذلك غير مصيبين . وإنما يفعلون ذلك لقلة المال وكثرة العيال . فالنّصرانيّ يسلم بيته قبـل أن يتحول عنه إلى نصراني آخر . وقسّيس المعرة ينزل ضيفاً على قسيس (تل منّس) . وقد يحدث أن يدخل إمام بعض المساجد الكنيسة فيقيم فيها الصلوات ويتلو الفرقان . وقد يحتاج الرجل من يهـود إلى رجلٍ من رهط المسيح فيتناسى ما سلف من حديث الأنبياء ، ويُري النصراني أنه غير حافل بدين التوراة . هذا إذا كان اليهودي حصيف الرأي . أما إذا كان غيرَ ذلك وأخذ في شيء من أحاديث الأوّلين أبغضه النصراني وتذكر ما بينهما من الذحول واعتقد فيه ما جاء في الكتاب الكريم : « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر » .

الثعلب يقص على الشاحج ما رأى من أحوال الجالين : وهنـا تكون الشمس قد هوت للغروب ، فيستأذن الثعلب بالانصراف لأنه يريد أن يعتس منازل القوم مع النموس ، لعله يصيب فيها طائراً أو دجاجـة أو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

رزقاً آخر من فضل الله . فيطلب منه الشاحج وهو يودّعه أن يستقصي له الأخبار ويجيئه بما صحّ منها عنده ، ويحذره أن يُريب طيرَ الرسائل إذا وجد منها شيئاً في المصر ، فإن حقّها عظيم .

ويعود الثعلب صباحاً ليحدث الشاحج بما رأى وسمع . إنه لم يُفد شيئاً من اعتساس منازل الجالين لأن هؤلاء قد تحرزوا وتركوا في كل رَبعٍ من ربوعهم واحداً يراعيه ويسهر عليه . فاضطُرّ الثعلب إلى أن يقفو أثر القوم حتى وصل إلى (تل منّس) حيث نزل معظمهم . وقد رآهم هناك يتشاورون في المساجد والكنائس فلا يستقرون على رأي . ولو كان للثعلب من الأمر شيءٌ لَنَصح هؤلاء الجالين ألا يمكثوا في (تل منّس) إلا الليلة أو الليلتين ، ولنصحهم أيضاً ألا يسلكوا جهة الشَّرْق لأنه من الشَّرَق ، وألا يقصدوا (جَرْجَناز) و (الكُفَيْر) و (عَجاز) و (الحِيار) لأنها كلها أسماء تبعث على التشاؤم ، ولو قُدّر لهم التوفيق لأجمعوا على السير إلى حلب والدّنو من الحضرة العالية ، فإنهم في طريقهم يمرون بمنازل كلها تبعث على التفاؤل مثل (سَرمين) و (زَرْدَنا) و (جَبَل الجَوْشَن) .

ويحذر الثعلب الجالين من اللجوء إلى بيوت الأعراب ، فإنّ بيوتهم من الشّعر ، كأبيات الشّعر . وهذا عزيز الدولة قد طلب من أسد الدولة (٥٧) أن يحمل إلى حلب والدته الرباب تسكيناً لأنفس الرعية وإعلاماً لهم بالتئام الكلمة . فما معنى أن يجلو الناس إلى البادية بينما كرائم الأعرابيات قد انتقلن إلى حلب ؟ وما عسى الجالون أن يجدوا في البادية سوى شظف العيش وشحّ الماء ؟ بل إن أهل البادية لم يبق فيهم اليوم أربٌ لطلاّب الفصاحة ، وقد تبعهم الثعلب تارات في الظّعن وشاهدهم إذا امتد السير وترجّل النهار (٥٨) فرآهم لا يعرفون في حُدائهم غير بيتين من الرجز

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« يكرّرونها تكرّر النَّفَس ... كأن أم الرجز عقيم من غيرهما ، وكأن الرجّاز من عهد معد بن عدنان وقبل ذلك عَفَلوا عن الرجز إلى اليوم! »

الثعلب يردّ على المرجفين : ويشرع الثعلب بالردّ على المرجفين الذين يخافون الروم ويزعمون أن عزيز الدولة قليل العدّة والعَدَد ، وكيف يُظَنّ ذلك بسلطانٍ بعض جنوده بنو عامر بن صعصعة وحلفاؤهم من طيّىءٍ وسِنْبِس ؟

ويُشيع المرجفون أن رجال هذه القبائل لا يهشّون للقتال لأنهم لا أرزاق لهم . مع أن أرزاقهم إقطاعهم ولو لم يكن لهم إقطاع لقاتلوا حميّة وانتصارا .

ثم يردّ على المرجفين من الروم أنفسهم الذين يُشيعون أن زعيم الروم أخّر خروجه إلى الشتاء . فإن من عادة المتحاربين أن يواعد بعضهم بعضاً في الربيع . ولكن الحقيقة أن الطاغية هاب العرب وجيوش المسلمين فجعل يطلب لنفسه المعاذير . ولو خرج زعيم الروم في الشتاء كما يدّعي المرجفون من أهل ملّته لأصابه وجنودَه ويل عظيم ، ولاضطُرّوا إلى أن يصطلوا قِسِيَّهم وأن يتّهادَوا أوتادَ الخيام ليوقدوها في المجامر ، ولأخَذَ العربُ أسلابَهم غنيمةً باردة .

ويردد هؤلاء أن زعيم الروم أمر بحفر أماكن في بلادِه لزيادة الماء في فُوَيق . إن هذا لفنٌّ من الكذب يدل على انقطاع حيلة هذا الرجل. أيُخَيَّل إليه أن في وسعه أن يجعل من فُوَيق ثالثاً للرافدين تعيش فيه الحيتان وتمخره السفن والقراقير ؟ ويطيب هنا للثعلب أن يجازي هؤلاء المرجفين كذباً بكذب ، فيزعم أن عزيز الدولة سيطلب من أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله (٥٩) أن يأمر من عنده من العلماء بالهندسة ومجاري الماء كي يصرفوا البحر عن مدينة القسطنطينية ليصبح ما بينها وبين بلاد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المسلمين أرضاً مسلوكة تسلكها الجيوش المنصورة لفتح دار مملكتهم ، أو أنه سيراسل أمير المؤمنين في خَرْقِ بحر القلزم (البحر الأحمر) إلى بحر الروم (المتوسط) ليكثر الماء على مدينتهم فيغرقها .

الثعلب يتحدث عن أخلاق ملك الروم وأحواله في أسْرَته : وينتقل الثعلب إلى الحديث عن بَسيل ملِك الروم . فهو رجل أُلِفَ الغدرَ ونشأ عليه . وقد سبق له أن خرج إلى بلاد المسلمين مرتين في أيام الحَمدانيين، وهو محالف لهم ، فجعل غنيمته من رعاياهم وبلادهم في المرّتين ، كما طرقت سَرِيةٌ له مَعَرَّة النعمان سنة ٣٨٥ هـ فغنم منهم .

وقد تقدّمت السن بملك الروم هذا فهو في عشر السبعين ، ولو أنه وُلِدَ له في اقتبال عمره لكان وَلَدُ وَلَدِه كهولاً . ويتحدّث الواردون من حضرته عن أخلاقه وسلوكه بأشياء يُكنى عنها . فما أحرى هذا الرجلَ أن يأخذ نفسه بِشَيم أهلِ السن ويرجع إلى الطريق المستقيم ! وتُرَدد الألسن أن له ولداً من امرأةٍ ليست تحل لمثله على رأي أصحاب الشرائع عندهم ، وأن في نيته إذا مات أخوه الأصغر قسطنطين قبله أن يعترف بأبوّته لهذا الولد ويجعل الملك إليه ، « وكيف يكون مَلِكَ جيلٍ من الأجيال مَن وُلِدَ لغيرِ رِشدة ؟ » ولشقيق الملك الأصغر أولادٌ إناث . فإذا مات الملك وأخوه فلربما مَلَّكَت الروم بعض هؤلاء البنات ، « والروم ربما ملكت النساء . وبعض الناس يقول : الزّباء الروميَّة ، يعني صاحبة جَذيمة ، ينسبها إلى الروم . وتمليك امرأةٍ صحيحة النسب في بيتِ المُلك أحسن من تمليك رجلٍ لم يثبت نَسَبُه » .

بدء عودة الجالين : ويستأذن الثعلب بالانصراف ، على أن يعود إلى الشاحج متى انتهى من طوافه في بعض أنحاء البلاد . ويعود بعد شهرٍ أو شهرين ليُخبر الشاحج أنه طاف في أنحاء البلاد وجاءَه بأنباءٍ كثيرة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكنه يطلب من الشاحج أن يحدّثه أولاً بما كان من أمره في أثناء غيابه عنه. فيحدثه الشاحج عن عودة الجالين وهم يشكون مالقوه في نزوحهم من شِدَّة وضيق ، إذ كان المضجع الواحد يضطجع فيه الاثنان أو الثلاثة ، والبيتُ الحَرِج تجتمع فيه الجماعة الكثيرة اجتماعَ الكلمات وازدحامها في بيت أبي الطيّب :

عِشِ ابقَ اسمُ سُدْ قُدْ جُدْ مُرِ انهَ رِفِ اسْرِ نَلْ . . . البيت

وقد وجدوا بعد عودتهم أن أمتعتهم التي خبؤوها في حال الدهشة والذهول قد اختلط بعضها ببعض ، فهم يتلاحَوْن في تمييزها وتخليصها . أما الذين جرت عادتهم أن يضمنوا مسقّفات الجامع فقد ألفَوا المواضع التي كانوا يضمنونها بلا أبواب ، فتعذر على الناظر إجراء الضمان على حاله فيما سلف . وأما الذين جلَوْا إلى حلب ، فقد عادوا وهم يرفعون أصواتهم بالدعاء لعزيز الدولة ، لأن الله أنعم على الرعية بهذا السلطان الذي ليس في أسمائه أو صفاته أو أسماء أصحابه وخدمه إلا ما يبعث على البشرى والتفاؤل . بل إن البلدان التي مرَّ بها الجالون في طريق عودتهم من حلب مثل (الراموسة) و (بُرَيج شيبوص) و (صَلْدَع) و (كفر نوران) و (سَرْمين) و (الصَّرْبة) ليس بين أسمائها إلا ما يمكن تصريفه فألاً للمسلمين وطِيَرَةً على أعدائهم .

الثعلب يقصُّ على الشاحج أنباء جيش الروم : ويتناول الثعلب الحديث ليقصَّ ما حمله معه من أنباء . فإن زعيم الروم خرج فعلاً من بلاده وقرب من بلاد المسلمين ، ولكنه ظلّ يخفي أخباره ويضبط المسالك ويقطع السُّبل . وهذه أفعال اللصوص لا الملوك . وليس أمام الطاغية إلا أن يسلك طريق (مَرْعش) أو طريق (طَرْسوس) . أما منازله المحتملة وراء الدَّرب فهي (الحَدَث) و (أنطاكية) و (عِمّ) و (حارم) . ويتفنن الثعلب في تصريف كل هذه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأسماء شؤماً على الطاغية وفألاً للمسلمين . وتتوالى أسماء الأمصار والقرى والمواضع الشامية التي قد يطمع الطاغية في الوصول إليها ، مثل (عَزاز) و (الأثارب) و (وقِنّسْرون) و (معرة النعمان) و (كفر طاب) و (شيزر) و (حماة) و (حمص) و (جوسِيَة) و (اللَّبْوَة) و (أنَبُ) و (أفامية) و (سنْقابُلُ) و (رَفنِيَّةُ) و (عاَنْمو) و (حصن الكهف) و (حصن الخوابي) و (بَنَنْياسُ) و (عرقةُ) و (بعلبك) و (اللاذقية) و (أشْتنانُ) و (أسْتَخاسُ) و (طرابلس) . وهو يقف عند كل اسم منها وقفة تطول أو تقصر لتخريج ما فيه من طيرة للعدو وفأل للمسلمين . وهي وقفات إن دلَّت على شيء فعلى عمق ما يكنُّه أبو العلاء في أعماقه من حب لهذه الأماكن التي يتغنى بأسمائها ويتفنن بتشقيق الكلام عليها .

ما تقوله العامة عن علاقات عزيز الدولة بملك الروم : ثم يشرع الثعلب في التعليق والردّ على ماتتحدث به العامة من أن سبب فساد ما بين عزيز الدولة وزعيم الروم أن هذا سامه أن يجتمع معه ، وجعل له مقابل ذلك العُشْرَ في بعض بلاده . وكيف يطمع الطاغية في مثلِ هذه المنزلة ؟ إن العشر أمر قريب ، فكيف يريد بمثل هذا القدر الزهيد أن يستحوذ على مودّة سلطان حاب ؟ ولعل عزيز الدولة إنْ حاربه أن ينتزعَ منه الخُمُسَ بحقّ الغنيمة . بل لو أن الطاغية جعل شطر ملكه للسيد عزيز الدولة لم يجبه إلى ما سأل « إلا أن يرى في ذلك صلاحاً للمسلمين ! » .

وتتحدث العامة أن غلماناً من بلاد الروم يزيدون على الثلاثين وردوا إلى الحضرة العالية ، فأمر عزيز الدولة بتطهيرهم . واختلفوا في أمر هؤلاء الغلمان ، فمن قائل إنهم هدية من ملك الروم ، ومن قائل إن عزيز الدولة اشتراهم بماله . وإذا ثبت أنَّهم هدية من ملك الروم فإن ذلك يدلّ على أن الحرب قد أعيته فرغب في المسالمة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتتحدّث العامة أن عزيز الدولة لو لم يثبت عنده خروج الطاغية لم يأمر بحفر الخندق حول حلب. وإنما فعل ذلك أخذاً بالسنة وتشبّهاً بالنبي ﷺ حين حفر الخندق حول المدينة. ويمكن تفسير حفر الخندق بأن العرب لما دانت للسلطان، وحمل أسدُ الدولة أمّه إلى حلب، أراد عزيز الدولة مواساتهم في بعض الأمور فأقام حلب مقام بيت الشّعر، وجعل لها الخندق مثل النّؤي الذي تحفره العرب حول البيت مخافة السيل، « وهذا قول مقنعٌ إن شاء الله ! » .

وبانتهاء حديث الثعلب ينتهي الحوار على ألسن الحيوان في رسالة الصاهل والشاحج .

ويختم أبو العلاء رسالته هذه معتذراً عن إسهابه، « والمُسيهب كحاطب ليل » . ويشير الى أن أخاه محمد بن عبد الله بن سليمان رجع من الحضرة العالية مُوقَراً بالمِنن، وأنه أراد أن يشكر فغرق في الإحسان، فصمت صمت الغريق. وأراد أبو العلاء أن يُعينه فأعداه بالغرق. فاستعان بأفواه الحيوان، ليدوم شكرها في كل أوان..

٩ ـ الرسالة كتاب جامع في علوم العربية

تلك مسيرة الحوار في رسالة الصاهل والشاحج. وهي، على ما تتضمنه من أخبار طريفة، وتعرضه من مشاهد مثيرة، ليست الا ذريعة لعرض ما تعوّد أبو العلاء أن يعرضه في رسائله من معارف تتصل بعلوم اللغة العربية، وبجوانب متنوّعة من معارف العصر .

ففي الرسالة مسائل كثيرة تتصل بلغات العرب، وبحوث لغوية وصرفية ونحوية عديدة ومتشعبة، وهي الى ذلك كتاب يجمع كل ما يتصل بالعروض والقافية والضرورات الشعرية، وديوان ضخم مفعم بالشعر النادر والأمثال والأخبار والأساطير، ودراسة كل هذه الثروة العلمية والأدبية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التي شحن بها أبو العلاء رسالته لها مجال غير مجال هذا العرض المحدود .

ولعل العناية التي خص بها أبو العلاء علم العروض في رسالته هذه تفوق عنايته بعلوم العربية الأخرى . ومردّ ذلك الى ما سمعه عن اهتمام عزيز الدولة بهذا العلم ، فقد حدّث رجل يعرف بعلي بن محمد العقيلي « أنه رأى عزيز الدولة بحلب - حرسها الله - وهو ينظر في العروض للخليل . . والملوك قد شُغلوا عن الفُروض ، فما بال النظر في العروض ؟ ولهذه الحكاية أكثرتُ الأمثال المتّصلة بما وضع الخليل لأن العامة على دين السلطان » .

١٠ - وقع الكتاب لدى عزيز الدولة

من المؤكد أن عزيز الدولة تقبّل الكتاب خير قبول ، وأنّ إعجابه بما فيه من علم وأدب غزيرين لم يكن بأقل من إعجابه بطريقة أبي العلاء في تصنيفه وإدارته الكلام فيه على ألسنة الحيوانات . يدلّ على ذلك أنه ما إن قرأ الكتاب حتى تقدم إلى أبي العلاء بأن يصنّف له كتاباً ثانياً على لسان الحيوان يجعله هذه المرة على نمط كليلة ودمنة ، أي مجموعة من الحكايات والأمثال .

وفي رسالة جوابية بعث بها أبو العلاء إلى محمد بن سنان - وهو الرجل الذي كُلّف نقلَ رغبة عزيز الدولة إليه - إشارة واضحة إلى هذا التكليف وإلى ما كان لكتابه الأول في نفس السلطان من جميل الوقع . يقول أبو العلاء :

« فأما كتاب كليلة ودمنة فليس له نسخة عندي ، ولا تمكّن به علمي ، ولا أذكر أني استكملته سماعاً قطّ . ولما ورد كتابه المعظّم سألت من جاءني منه بنسخة رديئة وكلّفته أن يقرأها عليّ . فكنت في ذلك كما قيل في المثل : عاطٍ بغيرِ أنواطٍ (٦٠). ولا يظنّنّ السلطان خلّد الله ملكه أن أمري يُقاس على ما اتّفقَ في رسالة الصاهل والشاحج ؛ فإنّ إقباله

ألقاها بخلدي ونفثها في فمي ونطق بها على لساني . ولا بدّ لي من تكلّفي استماع الاوامر ، لأن طاعة السلطان ـ أعزّ الله نصره ـ فرضٌ على كل أحد..»(٦١)

ونفهم من هذه الأسطر كذلك أن أبا العلاء عزم على الامتثال لرغبة السلطان هذه . وفعلًا شرع المعري في إملاء كتاب سماه (القائف) ، وأتم منه أربعة أجزاء في ستين كراسة ، أي ما يعادل حجم كتاب الصاهل والشاحج مرة ونصف المرة ، وحجم رسالة الغفران ثلاث مرات . ثم جاءه نبأ مقتل عزيز الدولة فقطع تأليف الكتاب لموت من أمر بعمله (٦٢).

وكتاب (القائف) هذا من تصانيف أبي العلاء التي لم يُكشف بعد عن وجودها . وقد أورد الكَتَلاعي الذي سبق ذكره نماذج قليلة من قصصه وأمثاله ، ووصفه بأنه « أكثرُ من كتاب كليلة ودمنة ورَقاً ، وأفسَحُ طَلقاً ، وأطيب شميماً وعَبَقاً » (٦٣) وقد نُشرت هذه المقتطفات نفسها في كتاب (تعريف القدماء بأبي العلاء)(٦٤).

١١ ـ تاريخ تأليف الكتاب

تعمدنا تأخير الكلام على تاريخ إملاء الصاهل والشاحج لنستعين على تحديده ببعض ماورد في هذا العرض . وقد سبقت الإشارة في الكلام على عزيز الدولة إلى أنه تولّى الحكم في حلب من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٣ هـ . فالكتاب ـ لا شك ـ أُملي بين هذين التاريخين . ولكن في الكتاب من الإشارات الواضحة ما يُعين على تحديد زمن تأليفه تحديداً أكثر دقة . فقد رأينا أبا العلاء يحدثنا حديثاً طويلاً كثير التلاوين عن جلاء الناس ومغادرتهم بلادهم وقُراهم خوفاً من ملك الروم الزاحف على رأس جيشه . وهذا الجلاء هو الذي سماه ابن العديم بِجَفْلَةِ عزيز الدولة لأنها كانت بسببه ، أي بسبب استنجاده بملك الروم بعد أن تغيّر ما بينه وبين الحاكم بأمر الله وسيّر إليه هذا جيشه لإخضاعه . ويشاء القدر أن يموت الحاكم وجيش الروم وراء الدُّروب ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما يزال بعيداً عن حلب ، وأن يتولى العرش الفاطمي في مصر ابنه علي بن منصور الملقب بالظاهر لإعزاز دين الله ، وأن يتظاهر الخليفة الجديد ، أو بالأحرى أن تتظاهر عَمَّتُهُ ست القصر القائمة فعلاً بأمور الدولة آنذاك لصغر سن ابن أخيها ، بالرضى عن عزيز الدولة كي تطمئن نفسه . وهي حوادث جرت كلها سنة ٤١١ هـ . وفي الكتاب إشارة واضحة إلى أن الجالس على عرش مصر وقت إملائه هو الظاهر الفاطمي (٦٥) . ويتضح كذلك من مَساق الحديث أن الكتاب كان يُمْلى وحديث الجَلاء على كُلّ الألسن ، في وقت أخذ فيه معظم النازحين يعودون الى بُلدانهم وقراهم وقد اطمأنوا بعضَ الاطمئنان - لا كُلَّه - إلى أن ملك الروم قد يعدل عن مواصلة الزحف بعد أن راسله عزيز الدولة — كما يؤكد ابن العديم — وأفهمه أنّه لم يبق ثَمَّةَ مُسَوّغ لقدومه بعد ارتداد الجيش المصري ؛ بل وهدّده بأن يكون وعربَ البادية يداً واحدة عليه إذا استمرّ في الزحف ، وليس من شكٍ في أن المفاوضات بين ملك الروم وعزيز الدولة حول هذا الانسحاب كلّفتْ سلطان حلب كثيراً من الهدايا والأموال ، واستغرقت وقتاً ليس بالقصير كان الناس خلاله في حيرةٍ كبيرة من أمرهم ، وهذه الحيرة يصوّرها الكتاب أدقّ تصوير .

كلّ هذا دليل على أن الكتاب كان يُمْلى خلال هذه الأحداث سنة ٤١١ هـ .

والتقدير السليم يدعو إلى افتراض تمامه في السنة ذاتها أو في مطلع السنة التالية على الأكثر . ويحدونا على هذا الافتراض ما سبقت الاشارة إليه من أن عزيز الدولة قتل في ربيع الآخر من سنة ٤١٣ هـ ، وأن هذه الفترة الفاصلة بين انتهاء أبي العلاء من إملاء الصاهل والشاحج ومقتلِ عزيز الدولة — وهي فترة لاتعدو العام وبعض العام - هي أقلّ مايتطلّبه وصول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكتاب الى عزيز الدولة وقراءته إياه ، ثم تكليف أبي العلاء أن يصنف له كتاباً ثانياً في معنى كليلة ودمنة ، وبحث أبي العلاء عن نسخة من هذا الكتاب ليقرأها ويَسْتلهِمَها نسَقاً يمضي عليه في تصنيف كتابه الجديد ، ثم إملاؤه أربعة أجزاء كاملة من (القائف) ، ثمّ توقّفه عن الإملاء وتركه الكتاب لَحناً لم يتمّ بعد أن جاءَه النبأ باغتيال سلطان حلب .

وهكذا تكون سنة ٤١١ هـ سَنَةَ الصاهل والشاحج في حياة أبي العلاء وكان الشيخ آنئذ في الثامنة والأربعين من عمره المديد .

★ ★ ★

وبعد ، فهذا عرضٌ يقتصر على مالابدّ منه للتعريف بالكتاب وملابسات تأليفه . ولا يمكن في أية حال اعتبار هذا الكلام تلخيصاً لكتاب ضخم يستعصي بطبيعته على كلّ تلخيص ؛ لأن المؤلف بثّ في كلّ سطرٍ من سطوره فكرةً تأمّلية ، أو بسمة فلسفية ، أو نكتة علمية ، أو شاردة أدبية من الشوارد الغزيرة التي تعمر حافظته العجيبة .

وإنما الغرض من نشر هذا الكلام الآن تبشير محبّي أبي العلاء بأن الكتاب في طريقه إلى الظهور ، وأنه بلا ريب من قمّم التصانيف العلائية . فهو إلى أنه يؤكّد ويوضح كثيراً من الجوانب المعروفة من حياة أبي العلاء الفكرية ، يكشف عن جوانب جديدة ما تزال مجهولة من هذه الحياة الخصبة التي لا تني تدهش الأجيالَ بقدرتها على الاثارة والخلق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تعليقات وشـــروح

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء /٤٥

(٢) المصدر السابق /٤٩

(٣) » » /١١٠

(٤) يرد هذا الاسم في بعض كتب التاريخ بالباء بدلاً من الميم

(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء / ٥٣١ - ٥٣٢

(٦) المصدر السابق /٤٤٧

(٧) » » /٤٤٥

(٨) » » /٤٤١ - ٤٤٢ و ٤٥٠ - ٤٥١

(٩) أوذموا على أنفسهم : نذروا وأوجبوا

(١٠) الأوالب : جمع والبة ، وهي في الأصل فراخ الزرع . والمراد بها في النص : الأقارب .

(١١) الحوبات : جمع حوبة ، وهي القرابة من جهة الأم .

(١٢) الأشقاص : جمع شقص وهو السهم والنصيب .

(١٣) الحسكل : الصغار من ولد كل شيء . والمراد بها في النص : الصبيان .

(١٤) الدرد : جمع أدرد وهو من لا أسنان له . والنهابل : جمع نهبل وهو الشيخ المسن .

(١٥) اللماسات : جمع لماسة . والروب : جمع روبة ، وكلتاهما بمعنى طلب الحاجة.

(١٦) يا بعضي دع بعضاً : مثل يضرب في تعاطف الأرحام . وكانت ابنة زرارة زوجاً لسويد بن ربيعة ولها منه أولاد . وقد أمر الملك عمرو بن هند باحضار الأولاد وقتلهم مكان أبيهم الذي فر بعد أن قتل أخا الملك . فتعلق الأحفاد بجدهم زرارة فخاطبهم بهذه العبارة المؤثرة التي ذهبت مثلاً (أمثال الميداني /٢ : ٤١٠) .

(١٧) أطيط الحاسة : العطف والرقة . وفي أمثالهم : ما تئط له مني حاسة ، أي لا أشعر نحوه بعطف . (أمثال الميداني/٢ : ٣١٢) .

(١٨) الأوق : الثقل .

(١٩) في عرضنا — بكسر العين وفتحها — : في وادينا .

(٢٠) رسائل أبي العلاء ، نشر مرجليوث/٥٩ — ٦١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٢١) ألغز بالأعمى عن السيل .

(٢٢) السباطة : الكناسة ، وألغز بالضرير عن جانب الوادي .

(٢٣) ولب منه : دنا منه ووصل إليه .

(٢٤) لا مخبأ لعطر بعد عروس : مثل يضرب لمن لا يدخر عنه نفيس . وعروس في المثل علم (أمثال الميداني:٢/٢١٢) .

(٢٥) هو باسيل Basile الثاني ، تولى الحكم في القسطنطينية من سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) إلى سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م) .

(٢٦) المصيصة : مدينة على نهر جيحون غير بعيدة من أضنة .

(٢٧) زبدة الحلب لابن العديم / ١ : ٢١٥ – ٢٢١ ، والأعلام للزركلي/٥:٤٢٢

(٢٨) زبدة الحلب /١ : ٢١٧

(٢٩) اللافظة : البحر .

(٣٠) أرض أريضة : كريمة طيبة .

(٣١) صبرة الذهب:كومة الذهب . والصبرة ما اجتمع من الطعام او غيره بعضه فوق بعض بلا كيل أو وزن .

(٣٢) الفلو : ولد الحمار أو الفرس حين يفطم أو يدنو من سن الفطام .

(٣٣) إشارة إلى خبر يرويه المعري ، وفيه أن علي بن أبي طالب مر بالحيرة بعد انصرافه من صفين،فسمع صوت الناقوس ، فسأل أصحابه عما يقوله ، فلم يحيروا جواباً، فقال لهم : إنه يقول :

إن الدنيا قد أغوتنا
واستغوتنا واستهوتنا
لسنا ندري ما قدمنا
فيها إلا لو قد متنا .. الخ

(٣٤) إشارة إلى خبر يرويه المعري ، وفيه أن عدي بن زيد كان مع النعمان بن المنذر تحت شجرة تعود ملوك الحيرة أن يشربوا عندها . فقال له عدي : أيها الملك ، أتدري ما تقول الشجرة ؟ قال : وما تقول ؟ قال : إنها تقول :

رب شرب قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال
ثم أضحوا لعب الدهر بهم وكذاك الدهر حالاً بعد حال

(٣٥) إشارة إلى المثل : أكذب من فاختة (أمثال الميداني /٢ : ١٤٩) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٣٦) أبو أيوب : كنية الجمل .

(٣٧) شارف همة : مسنة هرمة .

(٣٨) الهجمة من الإبل : ما زاد على الأربعين ، وقيل : ما بين السبعين والمئة .

(٣٩) أبو قابوس : كنية النعمان بن المنذر ، ملك الحيرة وممدوح النابغة وحسان.

(٤٠) إشارة إلى (كتاب الملاحن)لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، و (كتاب فتيافقيه العرب) لأبي الحسين أحمد بن فارس القزويني الهمذاني الرازي المتوفى سنة ٣٩٥ هـ . والكتابان في الألغاز والأحاجي . وهما مطبوعان .

(٤١) الرغاء : من أصوات الإبل . والمثل يضرب في قضاء الحاجة قبل سؤالها (أمثال الميداني/٢ : ١٤٢) .

(٤٢) رعنت : من قولهم رعنته الشمس إذا آلمت دماغه فاسترخى لذلك وغشي عليه .

(٤٣) ولع يلع – مثل وضع – : كذب . والولع : الكذاب .

(٤٤) عسكر :اسم الجمل الذي حمل هودج السيدة عائشة أم المؤمنين يوم الجمل .

(٤٥) نهد ونهض بمعنى .

(٤٦) مثل لام الجر تكسر إذا اقترنت باسم ظاهر وتفتح إذا اقترنت بضمير .

(٤٧) مثل كلمة(دم)تصبح بالقلب (مد) ، ويلحق الدال والميم صنوف التغييرات في الإعراب ، كما يلحقها السكون عند الوقف .

(٤٨) الضياون : جمع ضيون وهو القط .

(٤٩) إكاف الدابة : برذعتها .

(٥٠) أبو عقبة : كنية الديك .

(٥١) مثل يضرب في احتمال الشدائد والصبر عليها حتى تنجلي . والغمرة : الشدة (أمثال الميداني / ٢ : ٩) .

(٥٢) البرم : جمع برمة وهي القدر .

(٥٣) الفامي : بائع الحبوب والبقول .

(٥٤) مثل يضرب للذليل يسعد بالمصيبة تنزل بالعزيز . وأصله أن الجدب يكثر الموتى والجيف . وهذا نعيم الكلب . (أمثال الميداني / ٢ : ٣٨٤) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٥٥) الفرسكة:واحدة الفرسك ،وهو الدراقن في الشام والخوخ في مصر والمغرب (معجم الشهابي) .

(٥٦) الهدبد : الخفش وضعف البصر .والسمادير : شيء يتراءى للإنسان من ضعف بصر ناشيء عن سكر أو دوار أو نعاس .

(٥٧) أسد الدولة صالح بن مرداس الكلابي أمير بادية الشام أيام عزيز الدولة . وكان هذا يخشاه . ولذلك طلب منه أن يبعث بأمه إلى حلب كي يطمئن إلى ولائه . وأسد الدولةهو الذي سيمتلك حلب سنة ٤١٧هـ ويصبح بذلك أول أمراء الدولة المرداسية فيها .

(٥٨) ترجل النهار : ارتفع .

(٥٩) الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي ، علي بن منصور تولى العرش الفاطمي بمصر سنة ٤١١هـ وله من العمر ستة عشر عاماً ،بعد وفاة أبيه الحاكم بأمر الله أو اختفائه. وورود اسم الظاهر هنا من الإشارات الثمينة التي تساعد على تحديد التاريخ الذي أملى فيه أبو العلاء رسالة الصاهل والشاحج .

(٦٠) عاط بغير أنواط : أي يحاول التناول وليس ثمة شيء معلق يتناوله . يقال : عطا الظبي إذا تطاول إلى الشجر ليتناول منه . والأنواط :جمع نوط وهو الشيء المعلق. والمثل يضرب لمن يتناول مالا مطمع فيه ، أو لمن ينتحل علماً لا يقوم به .

(٦١) رسائل أبي العلاء ، نشر مرجليوث / ١٢٠ .

(٦٢) تعريف القدماء / ٤٥ نقلاً عن الإنباه للقفطي ، وكذلك ص ٥٣٢ نقلاً عن الإنصاف والتحري لابن العديم .

(٦٣) المصدر السابق / ٤٥٣ .

(٦٤) « « / ٤٥١ – ٤٥٣ .

(٦٥) انظر الحاشية ٥٩ .

الرباط أمجد الطرابلسي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net